أبو الثناء الألوسي الكبير

« بمناسبة مرور مائة عام على وفاته »

للأستاذ محمود العبطة

— ٣ —

عزله عن الإفتاء :

بعد سنين حافلة بجليل الأعمال ، يانعة بنهضة العلم وتقدم الأدب ورقي المعارف ، يراها الألوسي الكبير بعلمه الوافر وأدبه الثر ، وشخصه اللامع ... بعد هذه السنين التي هي بمثابة ضوء لامع ساطع يمده شهاب الدين الألوسي بالقوة والحياة ، في تلك السنين المظلمة المعتمة ، وبعد تلك السنين الخصبة صدرت إرادة الخليفة العثماني بنقل الوالي المصلح على رضا من ولاية بغداد وتعيين الوالي نجيب باشا مكانه (كانت ولايته عام ١٨٤٢ م) ولم يكن الوالي الجديد يقل عن الوالي القديم حبا للاصلاح وإيثارا للأمن والسلام ، وإن كان يفرق عنه في إيثاره القوة حين ينفع العقل ، والتصرف الصحيح ، ويفرق عنه أيضا في منهجيته وكبريائه ، وعذره في الخيلاء والكبرياء أنه من بيت السلاطين ، ويجري في عروقه الدم الملوكي ! وكما كانت بداية على رضا دليل شؤم ونحس على الألوسي ، إذ سجن فيها وعذب ، فقد كانت نهاية ولايته دليل شؤم ونحس على الألوسي بالذات وعلى (بغداد) التي وجدت فيه خير باعث لاسمها ومجدها أخيرا . . جاء محمد نجيب للولاية ، ولم يكن يعلم حالة أهلها وما هم عليه من تحزب وشقاق ، وحسد ونفاق ، وبعد أن استقر به المقام وتسلم زمام الولاية ، تحركت جيوش البغي والنفاق ، التي أخرسها عدل علي رضا ، إذ تمكن أعداء الألوسي الكبير أن يفهموا الوالي الجبار أن مفتي بغداد يكرهه ويكيد له ، وأثر ما تمكن هذا القول من قلب الوالي ، تجمع الأعداء وعددهم أكثر من مائتين تبعهم جمع كبير من السوقة والرعاع ثم قصدوا قصر الوالي نجيب الواقع في خارج بغداد القديمة وعلى شاطئ دجلة . وعندما قربت الجموع من قصر الوالي اندهش مما رأى وقال في سره إن ثورة حدثت ، أو انقلابا يهدد ولايته وخليفته بالويل والثبور ، وعندما استطلع الخبر أخبره زعماء المظاهرة أن سبب البلاء ورأس الفتنة هو أبو الثناء الألوسي مفتي الحنفية الذي يشاركه فيها واعظ الجيلي ، وأن من الخير وقطعا لدابر الفساد عزل المفتي الألوسي من الفتوى ونفي الواعظ إلى مدينة البصرة ! (١) فأجاب الوالي طلب المتظاهرين وأصدر حالا أمره بعزل الألوسي من الإفتاء ، وذلك عام ١٢٦٣ هـ (٢) وقد سبقت هذه الحادثة ، حادثة أخرى تصور درجة حقد الوالي على الألوسي ودرجة اؤمه أيضا ، وتلك الحادثة الأخرى هي أن كتابا ورد الألوسي المفتي من قصر السلطان في الآستانة ، يطلب فيه رجال القصر حضور مفتي بغداد إلى العاصمة العثمانية للاشتراك في ختان أبناء السلطان عبد المجيد ؛ فطلب الوالي من المفتي الاعتذار عن حضور الختان ، فأجاب المفتي الألوسي طلبه وأرسل رسالة يعتذر فيها عن الاشتراك في الحفلة (٣) والوالي الذي يطلب من الألوسي الاعتذار عن السفر يقوم بدور الثعلب الراوغ فيرسل إلى القصر العثماني رسالة يتقول فيها ما يشاء ويتهم الألوسي بأنه لم يحضر الحفلة إلا كبرياء واحتقارا ! (٤)

مطلعها :

She is a rich and rare (land
Oh-she's a fresh and fair (land

وهي من نظم الشاعر المعروف (توماس أوزبرن) . ويلاحظ هنا أن الشاعر كلمة « لاند » في آخر الأبيات رديفا ، والتزم في الكلمات التي قبلها قافية ..

كركوك — العراق — عطا الله ترزي باشي

---

(١) المسك الأذفر (ص : ١٣)
(٢) أعلام العراق (ص : ٢٤)
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر السابق

ومهما كان السبب فقد عزل الألوسي من الإفتاء ، وانصرف بكليته إلى إتمام تفسيره وتعليم تلاميذه ، ومدارسة خلانه . وقد قابل أمر العزل برباطة جأش معهودة فيه بكل أطوار حياته متقلبا الأيام ، وتقلب الأحوال . كل هذا والوالي يتحين الفرص للقضاء عليه ، والفتك به ، ولما لم يجد سبيلا لذلك فقد قطع عليه مصدر رزقه الوحيد ، وهو ما تدره عليه تولية جامع مرجان من مال قليل يقتات به وأهله الكثيرون ، فأصدر الوالي نجيب أمره بعزله من التولية بعد أن عزله من الإفتاء وصادر وظائفه الأخرى ، وذلك بعد عزله من الإفتاء بخمسة أيام (٥) مع أنه عين متوليا على جامع مرجان قبل تعيينه مفتيا على مدينة بغداد ، هكذا تقول المصادر التاريخية ، وقولها الصدق ، ولكن للجبروت والاستبداد صولة وسلطة ، في عهد لم تقيد فيه سلطة الحاكمين بالقوانين والأنظمة والعرف المستقر

وبرفع الفتوى والتولية عن الألوسي الكبير توالت النكبات عليه ، وعضه الفقر بنابه حتى باع كتبه وأثاثه وحاجاته البيتية ليقتات أهله وعائلته الكبيرة بثمنها . وهو مع هذه المصائب منصرف إلى إنجاز التفسير والقيام بواجب الدراسة ومجالسة الإخوان . ويقول الألوسي في مقاماته التي هي منبع غزير وصورة صادقة لحياته وعصره ، خصوصا وأنه كتبها في سنيه الأخيرة . يقول واصفا وظيفة الإفتاء وتدخل الحكام في شؤون المفتي (٦) (وقد كنت أرى أمر الإفتاء ، أمر من القضاء ، حيث مزقت الشورى إذ ذاك أديمه ، وأسقمه أعضاء المجلس ذوو الآراء السقيمة ، أعضاءه السليمة ، فلم يكن يختاره إلا ذو جهالة ، قد جعل والعياذ بالله تعالى دينه لدنياه حباله ، وحاشاني أن أكون كذلك .) وبقي في حاجة ملحة إلى المادة ، وفي قلق نفسي لا يزيله إلا مجالسة إخوان الصفاء ومدارسة التلاميذ والطلبة . وعند وصول أحمد ابن الوالي بغداد ، عرض شكواه عليه ، ووصف سوء حالته له ، فوجد منه أذنا صاغية ، وقلبا رحوما ، أزال منه بعض بلواه (٧)

و — رحلته الى الآستانة :

مضت السنة الأولى والثانية والثالثة ، والألوسي يتحمل ضربات القدر ، بعد أن سد باب رزقه ، وبعد أن لم يبق في بيته من أثاث وأشياء ما يباع ، حتى كاد — على ما يقول أن يأكل الحصير على مداد التفسير ، وقد وجد — وهو الخبير بتقلب الأحوال وطباع الناس — أن خير مخرج له هو أن يشد الرحال إلى العاصمة العثمانية .. خصوصا وحالته المالية تزداد في الهبوط ، إذ لا مصدر للرزق له ، ثم إن دروسه التي يلقيها في بيته تلقى مجانا على سنة علماء بغداد . . عزم الألوسي على السفر إلى استانبول ، ليعرض شكايته إلى أولي الأمر ، ويرفع ما بقلوبهم من كراهية وحقد . فشد رحاله في غرة جمادى الثانية عام ١٢٦٧ هـ (٨) (١٨٤٥م) وكان معه في قافلته المؤرخ سليمان والوالي عبد الكريم ومصطفى الربعي وإقبال الدولة الهندي . . تحركت القافلة ضحى جمادى ، تحمل كبار القوم ومعهم الألوسي وولد عبد الباقي ، وكان لسان حاله يردد قول الأمير الحيري :

ففيم الإقامة في بلدة ... تناكرني بعد عرفانها

سارت القافلة على بركة الله فوصلت الموصل فجزيرة ابن عمر فديار بكر حتى وصلت سامسون ومنها ركب الألوسي إلى القسطنطينية . وصل المدينة التي كان يحلم بها والتي كانت المركز العصبي للدولة الواسعة ، وكانت استانبول في عهده عروس الشرق الأوسط ، لأن الأموال تجبى من أطراف المملكة لكي تمد هذه المدينة وتزين ! فاتصل بشيخ الإسلام عارف حكمت الحسيني وقدم له التفسير فقابله الشيخ ببرودة غير معهودة ، وأخيرا تمكن الألوسي من إقناعه وإزالة ما بصدره من أقاويل ، وجرت بين شيخ الإسلام والمفتي السابق مناظرات ومباحث دارت على سمة اطلاعهما (٩) ، وأعانه شيخ الإسلام بالنزول بدار الضيافة بالقصر ، إذ قدم مذكرة إلى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) ضمنها مطالبه وشكواه وأردف بهما بيتين من الشعر ضمن بهما شطرا لأبي فراس الحمداني والبيتين هما :

(٥) المقامات
(٦) المصدر السابق
(٧) المسك الأذفر (ص : ١٢)

(٨) وصف رحلته في العودة الى بغداد في نشوة الدائم طبعة عام ١٢٦٩ هـ

قصدت من الوزراء صدرا معظما وقد سامني ضرا وقد ساءني دهر
فقلت لنفسي والرجاء موفر (لنا الصدر دون العالمين أو القبر)

وبعد دراسة المذكرة صدرت إرادة سلطانية بتوجيه رتبة قضاء (أرضروم) له مع إعطاء هدية مالية عظيمة (١٠) وبقي في العاصمة أشهرا مكرما محاطا بالإجلال، ثم أراد العودة إلى الوطن معتذرا من شيخ الإسلام الذي اقترح عليه الإقامة في العاصمة فتوجه إلى بغداد في ٢١ شوال عام ١٢٦٨ هـ ومعه في القافلة والي بغداد الجديد رشيد باشا الذي جعله ساعده الأيمن في بغداد، ثم وصلها في ١٥ من ربيع الأول عام ١٢٨٦ هـ وحين الوصول أجرى له استقبال عظيم من قبل إخوانه، ومدة غيابه في الرحلة الميمونة تقرب السنتين

و — الألوسي في أيامه الأخيرة :

رجع الألوسي إلى بغداد بعد رحلة طويلة شاقة، ورجع إلى عادته القديمة يحاضر دروسه في بيته ويدارس أصحابه وقد يتردد إلى قصر الوالي الذي كان يستعين به، والألوسي قد شاهد في حله في بغداد وترحاله إلى جزء مهم من الدولة العثمانية، وشاهد الانهيار الروحي والمعنوي في الدولة، فأراد أن يبعث الروح الإسلامية حية يقظة تكون مستعدة حين اعتداء الغربيين على دول المسلمين فألف رسالة مهمة في (الجهاد) (١١) وشرح كتبا أخرى قد ألفها قبلا (١٢) وكأنه كان يعلم بدنو أجله فأراد أن يهدي إلى الأجيال المقبلة تاريخا مفصلا لحياته ولعصره فكتب (مقامات) خالدة هي في مقدمة كتبه الأدبية، وكانت المقامة الأولى إرشادات طيبة إلى أولاده النجباء دلت على خبرة اجتماعية وحس دقيق. والألوسي مع قيامه بهذه الأعمال الجسام كان يتحمل آلام الحمى النافقة التي أصيب بها أثناء رجوعه من الرحلة إلى بغداد، إذ

(١٠) أعلام العراق (ص: ٢٦)
(١١) المصدر السابق
(١٢) اسمها (سفرة الزاد لسفرة الجهاد) طبعت في بغداد عام ١٣٣١ هـ
(١٣) من أدب الآباء والأبناء — لمحمود البيطة. الثقافة المصرية (عدد: ٦٤٩)

ابتلت جميع ثيابه، وبقي يتحمل هذا المرض الذي كان يعاوده

ز — وفاته :

وهكذا يتم الفصل الأخير من حياة الألوسي الكبير! حياة كلها كفاح مرير، ورجولة مثلى ورعاية للأدب، وتقديس للعلم

تحدر جسم الألوسي الكبير، بعد أن تحل عظمه، وهزل لحمه، ثم ارتفعت روحه إلى خالقها وذلك في صباح ٢٥ ذي القعدة ١٢٧٠ هـ، وقد شيع جثمانه تشييعا حافلا، سارت به بغداد أجمعها، وبين التأسف والتوجع دفن الألوسي في مقبرة عائلته في مقبرة الشيخ معروف الكرخي. رحم الله الألوسي الكبير!

تمت — محمود البيطة

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى
للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك
سفير مصر في الباكستان

ثمن الأول ثلاثون قرشا والثاني أربعون قرشا عدا أجرة البريد
والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة